

دراسات ميدانية في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

محافظة درعا والسويداء في مواجهة الفتنة
"قادسية بصرى" وأثرها على محافظة السويداء

همام الخطيب - فريق عمل



مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

إبريل 2015



محافظة درعا والسويداء في مواجهة الفتنة

"قادسية بصرى" وأثرها على محافظة السويداء

همام الخطيب - فريق عمل

أشرف على الورقة وحررها: يوسف فخر الدين

الاستشاريون

الأستاذ أنور البني، رئيس المركز السوري للدراسات
والأبحاث القانونية.

الأستاذ غازي دحمان، باحث غير متفرغ بمركز دراسات
الجمهورية الديمقراطية.

أ. د يوسف سلامة، المدير العلمي لمركز دراسات
الجمهورية الديمقراطية.

همام الخطيب

محلل في قسم التحليل السياسي
والإحصاء في مركز دراسات
الجمهورية الديمقراطية.

جميع الحقوق محفوظة لمركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

جدول المحتويات

- 4.....مدخل
- 5.....العلاقة بين المحافظتين الجارتين
- 6.....إستراتيجية النظام في بثّ الفتنة بين المحافظتين
- 8.....الميل العام للرأي في محافظة السويداء:
- 9.....جانب من معركة "قادسية بصرى".
- 11.....مساعي الفعاليات المدنية والجيش الحر في درعا لوأد الفتنة بين المحافظتين
- 13.....أثر معركة "قادسية بصرى" على أهالي السويداء
- 14.....ويعود هذا الانزياح في موقف أهالي الجبل إلى عدة أسباب
- 15.....عيّنات رأي
- 16.....مؤشرات رأي عملية:
- 17.....نتائج معركة "قادسية بصرى" في محافظة السويداء
- 18.....الخاتمة
- 19.....توصيات ومقترحات

مدخل

خلال أربع سنوات من عمر الصراع في سوريا، لم تكن النتائج السلبية ناتجةً عن إستراتيجية⁽¹⁾ النظام السوريّ التدميريّة التفتيتيّة فقط، بل نتجت أيضاً عن عدم فهم القوى المسيطرة على المعارضة لهذه الإستراتيجية، وعدم العمل على تفكيكها وإيجاد إستراتيجيةٍ مضادّةٍ لها تدعم مقولة المواطنة والشعب، هذا إن أقرت بوجودها أصلاً. كما أن سلوك بعض أطراف المعارضة مسلك الطائفية، والترويج لها، أضعف مفهومي المواطنة والمشاركة الشعبية لصالح إستراتيجية النظام التفتيتية.

إلا أنه خلال الأسابيع الماضية كان هناك تحوّل يمكن أن يعدّ في مقلب الأيام "إستراتيجياً"، إن تطوّر وعُمم كخيارٍ وطنيٍّ سوريّ، وخرج من دائرة المحليّ إلى دائرة الوطنيّ؛ وهو سلوك القيادة العسكريّة والسياسيّة في محافظة درعا أثناء المعركة التي أطلقت عليها المعارضة أسم "قادسية بصرى" وبعدها، والأثر الإيجابي الذي تركته عند أبناء محافظة السويداء. وقد تكون هذه السلوكيات المحليّة، إذا ما تنبّهت المعارضة السورية لها ولأثرها، مفصلاً مهمّاً في تشكيل نواةٍ لإستراتيجية وطنية على كامل التراب السوري تصبّ في صالح قوى الحراك الشعبي وتتجه بها نحو الدولة الوطنية.

نحاول في هذه الورقة البحث ميدانياً في: نتائج المعركة "قادسية بصرى"؛ وأثر هذا الحدث على العلاقة بين الجارتين درعا والسويداء؛ والانزياح التدريجيّ الملحوظ لتلك العلاقة باتجاه التوازن والاستقرار؛ والأسباب التي تقف وراء هذا الانزياح. كما نهتمّ بالتدقيق بتفاصيل المعركة لإظهار إستراتيجية النظام الهادفة للفتنة؛ وبالمقابل الإضاءة على سلوكيات الجيش الحر، والفعاليات المدنيّة في درعا، في وأد تلك الفتنة وطمأننة الأهالي في السويداء؛ والبحث في تطورات الرأى عند الأخيرين بأثر هذه السلوكيات. معتمدين في هذا البحث على: المشاهدات؛ وشهادات الأشخاص من قلب الحدث التي حصلنا عليها من خلال المقابلات الفردية، أو عن طريق المراسلات عبر قنوات التواصل الاجتماعيّ. متوخين الموضوعية، ومعتمدين منهجاً للبحث يقوم على الملاحظة والرصد للحالات الاجتماعية والسياسية التي تخصّ موضوع البحث. كما قمنا بمقارنة الشهادات

1 - يمكن العودة إلى الكتاب الإلكتروني " إستراتيجية سلطة الاستبداد في مواجهة الثورة السورية "، مجموعة من الكتاب، اعداد وتحرير يوسف فخر الدين، اصدار مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، <http://goo.gl/CBRz3x>

التي بحوزتنا مع بعضها، وبعد ذلك رجحنا المتفق عليه وما قدرنا أنه الأكثر موضوعيةً بينها، ليصبح معطًى يمكن الركون إليه وأساساً يمكن البناء عليه.

العلاقة بين المحافظتين الجارتين

ما إن انطلقت حركة الاحتجاجات السورية حتى انقسم الرأي في محافظة السويداء حولها، كما في عموم سوريا. وكان هناك عدة عوامل أثرت على مواقف المترددين، عملنا على عرضها في بحثنا "في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة"⁽²⁾. منها ما هو سياسي واقتصادي، ومنها ما هو تاريخي، وطائفي. وكان من اللافت مشاركة النخبة المثقفة في محافظة السويداء في الحركة المطالبة بالتغيير والمشاركة السياسية منذ انطلاقتها، ولاسيما اعتصامات المحامين في المحافظة، ومشاركة الناشطين من أبناء المحافظة في النويّات الأولى للثورة في العاصمة دمشق⁽³⁾. كما أن البنية التضامنية للمجتمع في المحافظة، وهو منتج تاريخي، عرف آلية لإدارة الخلاف فيها، حيث استطاع المعارضون من خلالها المحافظة على السلم الأهلي في حدوده الدنيا بين المحافظتين، وهذا ما ساعد في مقاومة المجتمع لمحاولات زرع الفتنة مع درعا؛ فجزء كبير ممّن يمكن تصنيفهم موالاة، كانوا حريصين على حسن الضيافة للنازحين وحسن الجوار؛ على الرغم من كل الضغط الأمني، ومن "الألاعب" التي عمدت لها القوى الأمنية ولاسيما الأمن العسكري.

وبالإضافة للقوى المدنية الديمقراطية، وبعض المجموعات العسكرية⁽⁴⁾، أنتج المجتمع ظاهرة "مشايخ الكرامة" في سياق مقاومته زجه في مواجهة بقية الشعب السوري، بحجج تبتغي تطييف الصراع الناتج عن قمع النظام للمطالب الشعبية. وهي الظاهرة التي بدأت بالظهور عندما هاجم مجموعة من المشايخ معسكر سد العين (وهو مركز عسكري لتجميع المتخلفين والممتنعين عن أداء الخدمة العسكرية في السويداء) وأطلقوا سبيل المحتجزين رغماً عن السلطات. وبعدها قام "مشايخ الكرامة" بتخريب خيمة كانت منصوبةً للاحتفال بـ"انتخابات الرئاسة"، بعد أن أقدم مجموعة من المؤيدين على إلباس امرأة مسكينة لباس الدين، في استغلال واضح للدين في

2 - همام الخطيب، في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية: <http://goo.gl/K2rhYP>

3 - عُرفَ منهم بشكل واسع بعد اعتقاله كل من "شادي أبو فخر" و"عاصم حمشو" و"عمر الأسعد"، وهم من مؤسسي "تنسيقية أحياء دمشق"، والدكتور "جلال نوفل" و"عمر الخطيب" و"زياد جبل"، والناشطات النسويات "إباء منذر" و"اليس مفرج"، و"أمل نصر" زوجة الناشط "عنان الدبس" الذي اعتقل أيضاً مع العلم أن بعض من أبناء السويداء، من المقيمين في ريف دمشق، قتل تحت التعذيب مثل الناشط الإغاثي "مأمون نوفل"، كما توفي الدكتور "أسامة بركة" بعد إطلاق سراحه نتيجة مضاعفات اعتقاله...

4 - في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة، مرجع سبق ذكره

السياسية، وجعلوها ترقص ابتهاجاً بنجاح بشار الأسد في انتخاباتٍ لم يعترف بها عامة الشعب السوري والمجتمع الدولي. وعلى إثر هذه الحادثة اعتقلت قوات النظام الشيخ "لورانس سلام"، وهو من "مشايخ الكرامة"، فخرجت مظاهرة مسلحة⁽⁵⁾ بالقرب من "عين الزمان"⁽⁶⁾، تطالب بإطلاق سراحه، وتندد بسياسات الأجهزة الأمنية وتطالب بإسقاطها؛ مركزين على شخص "وفيق ناصر"، رئيس فرع الأمن العسكري.

وفي تاريخ 2015/1/22 قام "مشايخ الكرامة" بهدم حاجز للأمن الجوي على طريق قرية المزرعة، بعد إساءته لسكان القرية، فأطلق بعدها الشيخ "وحيد البلعوس" خطابه الشهير الذي تحدّى فيه الرئيس بشار الأسد، وهدّد رئيس فرع الأمن العسكري في المحافظة بالقتل. وكان، كما أسلفنا، لمقاومة الفتنة حضوراً محورياً في كثير من سلوكيات المجتمع في محافظة السويداء، حيث وجدنا تلاقياً بين المعارضين مع قطاعٍ ليس بالقليل من المؤيدين حول الرغبة في حصار الفتنة مع محافظة درعا. ولكن هناك أسباب أخرى عملت على توجيه الرأي العام. منها:

- 1- سوء معيشة أبناء محافظة السويداء وقلة موادّ التموين والمحروقات.

- 2- كثرة القتلى من أبناء المحافظة في صفوف جيش النظام.
- 3- سوء معاملة الأجهزة الأمنية لأبناء الجبل، وقتل مجموعة من الشباب في السجون تحت التعذيب.
- 4- الفوضى التي تعمّ الجبل وحوادث الخطف والنهب والسرقة التي باتت واضحة للأهالي أن النظام هو المسؤول الأول عنها.
- 5- الشعور العام بفشل النظام وعدم قدرته على الحسم.

إستراتيجية النظام في بثّ الفتنة بين المحافظتين

في مقابل المبادرة الأهلية، وفاعلية المعارضة، عمد النظام، ومنذ الأيام الأولى للثورة، إلى زرع الفتنة والشقاق بين المحافظتين الجارتين؛ عبر تخويف دروز السويداء من المدّ السنّي؛ وأن سنّة حوران يشكلون الخطر الأكبر عليهم، ويريدون السيطرة على السويداء عندما يصبح الظرف موافياً، وبدأ يفتعل المشكلات عبر شبكة المخبرين والفاستدين والمهريين وقطاع الطرق التي يديرها

5- مظاهرة عين الزمان: <http://goo.gl/yyaL9x>

6- مقر ومزار ديني للدروز، وله قدسية ورمزية كبيرة عندهم.

"وفيق ناصر" رئيس فرع الأمن العسكري في السويداء عبر شخص بدوي "جامل البلعاس". مرتكزاً على درايته بالحساسيات الدينية والتاريخية والمناطقية بين المحافظتين، وعلى الشبكة التي أسسها واستفاد منها قبل أن تبدأ الثورة. وهو ما يظهر قدم آليات عمل النظام التفكيكية، وحرصها على تفعيل النزاعات المناطقية، والأثنية، والطائفية، وصولاً إلى تلك التي بين الفلاحين والبدو.

وفي هذا السياق كان، ومازال، المدعو "جامل البلعاس"، ومجموعته، من أدوات رئيس فرع الأمن السياسي لتنفيذ الخطف والفتنة والقتل عندما يحتاج لها. فقبل كلِّ حدثٍ في السويداء ودرعا أو بعده، تعتمد هذه المجموعة إلى افتعال مشكلةٍ ما، تهدف من ورائها إلى تجييش الشباب في السويداء، وهم على درايةٍ أن أهالي السويداء يتكتلون بشكلٍ غريزيٍّ عندما يتعرضون لأي خطر، ويصبح الباب مفتوحاً لاستثمار ردّات فعلهم تجاه درعا. فقبل أيام من معركة بصرى تمَّ إطلاق النار عشوائياً في بلدة "القريّا" بعد منتصف الليل من قبَل مجهولين، على الرغم من الانتشار الواسع للأمن والدفاع الوطني، وبعد هذه الممارسات تخرج الإشاعات الأمنية متهمّة أهالي درعا في ذلك، وأنهم كانوا يريدون اقتحام البلدة. وتبيّن لاحقاً أن مجموعةً من المؤيدين وعناصر "ميليشيا الدفاع الوطني" هم من قاموا بذلك.

وبعد هزيمة النظام في بصرى وذهاب الشيخ "وحيد البلعوس" إلى بلدة "القريّا" لإحياء ذكرى رحيل القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان الأطرش، الذي أصبح يتمتع بشعبية لا يستهان بها في محافظة السويداء، ويعود ذلك لرفضه سياسات النظام وفضحها والوقوف في وجهها عند الضرورة، ولاسيّما بعد أن هدم حاجزاً للأمن الجويّ على طريق قرية "المزرعة" بعد تعرّض عناصره لأهالي القرية والإساءة لهم. وعند دخوله إلى ضريح "سلطان الأطرش" كان هناك مجموعةً من المؤيدين يرفعون علم النظام، فأمر بإنزاله، وحصلت مشاحناتٍ فيما بينهم، ثم أنزلوه عنوةً، وبعدها ألقى خطاباً يؤكد فيه على ضرورة السلم الأهلي والمحافظة على العلاقة الطيبة مع أهالي "درعا"، وأن الحرب يجب أن تكون على الفتنة، مشيراً إلى مسؤولية النظام في بثّها، وبيّن أن أهالي "درعا" في الأحداث الأخيرة لم يكن في نيتهم الاعتداء على محافظة السويداء.

وفي اليوم الذي تلا هذا الحدث الشعبيّ، والذي لقي استحساناً عند أهالي السويداء عامة، تمَّ قتلُ أحد الشباب من قرية "المتونة" وهو الشاب "صافي ركاب" في السويداء الذي كان قد خُطف هو

واثنان من أقاربه من قبل مجهولين، وبعدها بأيام تمّ قتل شابين من قرية "حيط" بدرعا ضمن أراضي السويداء بملابسات غامضة، وهما "إبراهيم محمود الأقرع" و"محمد فخري الناصري"؛ حيث وُجدا مقتولين ومرميين على الأرض، وهما مكبلا الأيدي، وبعدها أشيع أن من قتلهم هو "موسى حيدر" المعروف بأبي العباس، الذي ينتمي في المذهب إلى شيعة بصرى، ويسكن في مدينة صلخد قرب مركز أمن الدولة في المدينة. (وهذا ما أكدته صفحات إعلامية عدة على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك" منها "شبكة أخبار درعا والسويداء الموحدة")

كل هذه الممارسات للنظام، له فيها غايتان:

1- **غاية سياسية اجتماعية:** وتكمن في ربط أهالي السويداء، تحت عنوان طائفي، عضواً فيه، ليظهر عالمياً بأنه حامٍ للأقليات؛ وأيضاً تفتيت البنى الاجتماعية، وعلاقتها البيئية، الهشة أصلاً لظول تخريبها من قبل النظام الحاكم؛ وتفتيت جهد السوريين المبدول لنيل الحرية والكرامة، وإخراج الحراك الشعبي من دائرة التمرد على الظلم والفساد، حيث يقوم بها كل السوريين ضد الطاغية المستبد، إلى دائرة حرب الجميع ضد الجميع، أو في أحسن الأحوال حرب أهلية، وبذلك تنتهي المطالب الشعبية بإسقاط النظام ويسقط المجتمع بشكل نهائي في فخ العدمية.

2- **غاية عسكرية:** توريط أهالي السويداء في خوض حرب بالوكالة عن النظام؛ فنُزحُ المحافظتان في حرب استنزاف بينية، ويتفرغ هو لأعمال عسكرية أخرى؛ فالنظام عندما شعر بعجزه، فكّر بالخطة البديلة وهي الحرب بالوكالة عنه، بدأها باللجان الشعبية ومن ثمّ الدفاع الوطني، وبعدها لجان المقاومة الشعبية، والآن يسعى لتحويل الدروز إلى مجندين في ما يسمى جيش الحشد الشعبي ضمن جيشه المتهاك.

الميل العام للرأي في محافظة السويداء:

بمقابل إستراتيجية النظام، كان للمبادرات الشعبية ذات المنحى الوطني، والمعارضة المدنية، دورها المحوري، في كل من المحافظتين، في بناء جسور الثقة والتعاون. وهي ضعفت بعلاقةٍ طرديةٍ مع تقدم العسكرة، وانتقال مركز الفعل من دائرة المدنيين إلى يد قوى عسكرية متعددة الأهواء والخلفيات الأيديولوجية. الأمر الذي أدى لكثير من التخبط، ووضع عموم السوريين أمام

الشك بمستقبلهم، وهذا ما حرصت سلطة الأسد على تعزيزه وتكريسه، وحاولت استثماره بأقصى طاقتها، بينما تخبطت المعارضة لأسباب يصعب تكثيفها بعجالة، ولكن أهمها التنافس على السلطة وشراء الولاءات، والغرق في وحل الأيديولوجيا وأوهامها، التي تفارق طبيعة الحركة الشعبية المدنية، التي ثارت على الاستبداد الأيديولوجي نفسه مع اختلاف المصدر؛ وهذا الفشل انعكس على الشعب السوري ويلات تضاف لتلك التي تأتيهم من سلطةٍ تدمر المدن، وتعتقل، وتقتل دون أي وازع قانوني، أو أخلاقي إنساني.

لكن الأحداث لم تكن كاملة السواد، فالمبادرة المدنية الديمقراطية رغم كثرة أعدائها، وتعدد السلطات التي أصبحت تقبع تحت نيرها بقيت تقاوم؛ كما أن القوى العسكرية عرفت محاولاتٍ لأطراف منها للنهوض على أسسٍ وطنيةٍ ديمقراطيةٍ، وهو ما حصل في كلِّ المناطق المتنازع عليها، ومن أبرزها الجنوب السوري الذي عرف بعض أهم هذه المحاولات الجدية. وهو ما كان نتيجةً لأسبابٍ أهمها طبيعة التكافل والتضامن العشائري في مدينة درعا، ولغلبة الثقافة الوطنية الديمقراطية فيها⁽⁷⁾.

وهو ما وجدناه مبشراً وبارزاً في سلوكيات قوى المعارضة المسلحة في معركة بصرى الشام، التي أُطلق عليها اسم "قادسية بصرى". وعلى الرغم من قرب الحدث، وعدم إمكانية الجزم برأي ثابت أو شبه ثابت حول مستقبل العلاقة بين المحافظتين، كون عدم الثبات هو سمّة صراعٍ لم يتبلور فيه تيارٌ وطنيٌ ديمقراطيٌ منظمٌ فاعلٌ ورئيسيٌ بعد -إلا أننا وجدنا أن هناك آلية عملٍ واقعيةٍ يعدُّ التوقف عندها، والبحث فيها، وبأثرها على المجتمع، وكشفها، وتعميمها، مهماً في طريق إنتاج هذا التيار ووعيه العملي. ولتوضيح كيف أن نموها على حساب الاحتمالات المضرة بالنسيج الوطني، سيكون عاملاً مهماً في تعزيز الميل الصاعد للمطالب الديمقراطية بين قطاعات لطالما اعتبرت مترددة.

جانب من معركة "قادسية بصرى".

حاول الجيش الحر والفصائل الإسلامية اقتحام بصرى الشام أكثر من مرة قبل معركة "قادسية بصرى" من محوري جمرين ومعربة، وفشلت تلك المحاولات. فأدركوا أن اقتحام بصرى لا يتمُّ إلا

7 - غازي دحمان، الوضع العسكري في محافظة درعا مع خريطة توضيحية، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية.
<http://goo.gl/qrJyG>

من ثلاثة محاور هي جمرين، معربة، صماد؛ وقرية "صماد" تتداخل أراضيها مع قرى (بكا، وذيبين، وبُرد) التابعة لمحافظة السويداء. وهذه القرى الثلاث تقع في الريف الجنوبي الغربي للمحافظة، وفي هذه الجغرافيا المتداخلة تكمن حساسية هذا المحور؛ حيث سيضطر الجيش الحر إلى تعطيل حواجز (بكا وذيبين وبُرد) ليتسنى له الدخول إلى "صماد"، ومن ثمّ قطع طرق الإمداد عن بصرى واقتحامها. وهذا ما حدث في معركة "قادسية بصرى"؛ حيث تسللت مجموعة من الجيش الحر إلى قرية "صماد"، وفصلوا بينها وبين الحواجز التي تتموضع في قرى السويداء المجاورة لصماد وبصرى؛ مع العلم أن المسافة لا تتجاوز 3 كيلو متر خط نظر. عندها بدأت قوات النظام تسوّق إشاعة مفادها: أن المسلحين يريدون اقتحام محافظة السويداء، على الرغم من علمها أن بصرى الشام هي المستهدفة وليست السويداء.

في هذه الأثناء نزلت مجموعة من الدفاع الوطني من "بكا" باتجاه قرية "صماد"، وعندما وصلوا إلى أرض تسمى "السبسية" تفاجؤوا بالجيش الحر هناك، فحصل اشتباك فيما بينهم، وقُتل ثلاثة من عناصر الدفاع الوطني. عندها بدأت قوات النظام تبتّ إشاعة بأن المسلحين اقتحموا قرية "بكا" وقتلوا عدداً من شبابها، فبدأ سكان هذه القرى بإخراج النساء والأطفال منها؛ حيث أصبحت خالية تماماً من النساء والأطفال، وقام عناصر الدفاع الوطني في قرية "ذيبين" بإطلاق النار بشكلٍ عشوائيٍّ ومن دون تصويبٍ من قرب خزان البلدة باتجاه "صماد" دون رؤية الهدف، فأطلق الثوار عليهم أربع قذائف سقطت بجانب الخزان وأمامه، على الرغم من قدرة الثوار على تحقيق إصاباتٍ مباشرة، ولكن هذه القذائف كانت قذائف تحذيرية لمنع الاقتراب وإيصال رسالة فحواها: (إننا قادرون أن نطالكم ونطال قراكم بالقذائف، ولكن هدفنا ليس أنتم فكفوا عن الاشتباك معنا). وهذا ما قاله ضابطٌ متقاعدٌ من سكان القرية كان قد ذهب إلى الحاجز وخاطب العناصر قائلاً: "يا شباب هذا معناه أنهم لا يريدون إيذاءكم مع قدرتهم على ذلك فكفوا الشر، هم لا يستهدفونكم ولن يستهدفونكم فأنتم ستجلبون البلاء إلى القرية إذا استمررتم على هذا النحو".

بعدها طلب عناصر الدفاع الوطني من الجيش الإمداد بالسلاح والذخيرة، ولكن الجيش لم يقدم سوى ثلاثة عناصر ودوشكا، وقال لهم قائد الفرقة 15: "هؤلاء العناصر لا يتحركون أو يطلقون النار إلا بأمرٍ مني"، وهذا ما شكل الخلاف فيما بعد بين عناصر الدفاع الوطني من جهة، والجيش والأجهزة الأمنية من جهةٍ أخرى. وتعود الخلافات بين الطرفين إلى أنّ الطرفين لا يتقان

ببعضهما؛ فالنظام يعلم مدى فساد عناصر وقيادات جيش الدفاع الوطني؛ حيث إن هذه العناصر في أغلب الأحيان تفتعل اشتباكاتٍ وهميةً لتحصل على الذخيرة، ومن ثم تقوم ببيع تلك الذخيرة والمتاجرة بها، وعناصر جيش الدفاع الوطني يعلمون أيضاً أن النظام لا يحمل عقيدةً وطنية. وفي اليوم التالي جاءت ستة باصات من دمشق ليلاً تحمل ميليشيات شيعية، ووقفت عند مبنى المحافظة في السويداء، وبعدها انطلقت باتجاه بصرى من حاجز "بُرد"، وقبل أن تصل القافلة قام الجيش الحر باستهداف أول باصين بصواريخ موجهة دمرتهم تدميراً كاملاً، ونُقل إلى مشفى السويداء أكثر من خمسين جثةً جراء ذلك، وسط حالة من الفوضى والذعر.

إن هذا كل ما حدث أثناء معركة "قادسية بصرى" بما يخصّ السويداء، ولكن النظام أَلْف الكثير من الروايات، وله في ذلك مآربٌ كثيرةٌ حرصنا على توثيق أهمها في طيّات هذا البحث.

مساعي الفعاليات المدنية والجيش الحر في درعا لوأد الفتنة بين المحافظتين

تجلّت هذه المساعي بشكلٍ واضحٍ أثناء معركة "قادسية بصرى" وبعدها، ويمكن حصرها في أربعة مواقف بارزة:

الموقف الأول:

لم يردّ الجيش الحر على مصادر النيران من قريتي "بكا" و"ذيبين" ضمن الريف الجنوبي الغربي لمحافظة السويداء سوى قذائفٍ تحذيريةٍ أتت قرب الخزان في قرية "ذيبين" وعلى جوانبه، ولم يتم استهداف هذا الخزان الذي كان مركزاً لتجمّع مسلحي القريتين، مع العلم أنه كان بإمكان الجيش الحر استهدافهم واستهداف تلك القرى بإصاباتٍ دقيقةٍ، وهذه كانت رسالة مفادها: أننا لا نريد مواجهتكم، ومعركتنا ليست معكم مع قدرتنا على استهدافكم.

الموقف الثاني:

بعد تحرير "بصرى الشام" وسيطرة الجيش الحر عليها، انسحبت قوات النظام بالتنسيق مع الميليشيات الطائفية هناك، ولم يعلم بهذا الانسحاب عناصر الميليشيات الذين أتوا من السويداء وعددهم يفوق خمسةً وثلاثين عنصراً، كانوا محاصرين في قلعة بصرى. فما كان من الجيش الحر إلا أن نادى عليهم بمكبرات الصوت؛ أن اتركوا أسلحتكم وألقوها أرضاً وعليكم الأمان. قال

أحد العناصر التي كانت موجودة هناك وهو من قرية "بكا" ويتبع تنظيمياً للحزب القومي السوري: (قالوا لنا: ارموا أسلحتكم واتصلوا بالحاجز الموجود في "بكا" لكيلا يطلق النار عليكم بالخطأ، واخرجوا من هنا رتلاً واحداً.) ثم أضاف: (اتصلنا بالحاجز وقبل أن نخرج قالوا لنا أخبروا أهلكم أنكم غير مستهدفين وأنتم جيراننا.)

الموقف الثالث:

هو البيان الذي صدر باسم أهالي ومتقفي درعا، وكان بياناً يؤكد على وحدة الشعب السوري والتاريخ الوطني المشترك بين محافظتي درعا والسويداء، وأكد البيان على حسن الجوار وحذر من الفتنة التي يسعى إليها النظام. وذكر في البيان أن ما يحدث في درعا هو حرب تحرير من الاستبداد والاحتلال الإيراني، ونبه البيان بلغة أخوية "تهيب بكم أن تنتهبوا" وأنتم النبهاء" إلى أن استخدم أبناء السويداء وقوداً لمشروع إيران هو محاولة بائسة للعب بمصير البلاد، ونحن وأنتم خارج هذا المضمار والتاريخ يشهد.⁽⁸⁾ ووقع على هذا البيان شخصيات هامة من أهالي درعا والسويداء، كما وقع عليه الزعيم الاشتراكي اللبناني وليد جنبلاط. وقد لقي هذا البيان استحساناً واسعاً عند أهالي السويداء، وصدر بيان من قبل تجمع القوى الوطنية⁽⁹⁾ في السويداء ببارك لأهل درعا هذا الانتصار، ويؤكد على وحدة السهل والجبل، وبأن الوطن باقٍ والمستبد زائل، ويفضح ممارسات النظام الرامية للفتنة، ويؤكد على أن السويداء وقواها السياسية "جزء لا يتجزأ من نسيج الشعب السوري النائر لنيل حريته مهما طال الزمن وبلغ الثمن."⁽¹⁰⁾.

الموقف الرابع:

عندما ذهب مجموعة من مشايخ السويداء عن طريق "الأصلحة" لتهنئة أهالي "بصرى" بالتحريز، تم استقبالهم بشكل مميز، وأدخلوهم إلى مضافة فيها صورٌ للشهيد "كمال جنبلاط" و"سلطان الأطرش" والملازم أول "خلدون زين الدين"، وأيضاً صور لبعض شهداء حوران كتعبير عن وحدة الشعب السوري والدم السوري، وعن مدى احترام تضحيات الدروز والاعتراف بتاريخهم

8- بيان متقفي درعا: <https://www.zamanalwsl.net/news/59176.html>

9- هيئة سياسية تضم مجموعة من الأحزاب والتكتلات: إعلان دمشق، وحزب العمال الثوري، وحزب الشعب الديمقراطي وغيرها من الأحزاب، وقوى ثورية: هيئة محامي السويداء الأحرار، وتنسيقية محافظة السويداء وغيرها من القوى الثورية في المحافظة.

10- بيان تجمع القوى الوطنية: <http://goo.gl/y1xWWE>

المشرف وأبطالهم. وعندما جاء موعد صلاة العصر منحوا ضيوفهم من المشايخ الدروز شرف الإمامة بهم في الصلاة.

أثر معركة "قادسية بصرى" على أهالي السويداء (21 إلى 24 - 3 - 2015)

أ- أثناء المعركة: أصاب أهالي السويداء حالة من الخوف والقلق والترقب، وذلك بالتساوق مع دعايات النظام الأمنية بحتمية استهداف السويداء من قبل "الإرهابيين" القادمين من درعا، وسُجّلت حالات نزوح كبيرة من قرى "بكا" و"ذيبين" و"برد"، حتى إن أحد الأشخاص في قرية "ذيبين" قام ببيع ماشيته بثمنٍ بخس على أنه لا عودة إلى هذه القرية.

وردّات الفعل هذه تدلّ وتؤشّر على تعمّق دعايات النظام في نفوس الأهالي، وعدم شعورهم بالثقة إزاء جيرانهم السنة، وتؤشّر على مدى نجاح النظام في تخويف مكونات الشعب السوري من بعضها، وعلى فشل المعارضة في بثّ الطمأنينة في نفوس الأهالي. كان هذا قبل أن تضع المعركة أوزارها ويظهر الجيش الحر سلوكاً مميزاً في طمأننة أهالي السويداء، فالمزاج العام في السويداء كان متجهاً نحو أن الخطر محقق، وأن المسلحين سوف يدخلون السويداء ويعيثون فيها فساداً وقتلاً وتدميراً. ومما زاد في خوف الأهالي، سلوك ميليشيات النظام المحموم والأخرق؛ حيث إنهم كانوا يبثون إشاعةً مفادها، أنهم في حالة اشتباك ضمن قرى السويداء المجاورة لبصرى، مع أن الاشتباكات كانت في "بصرى" و"صماد"، كما كانوا يطلقون النار في الهواء داخل قرى ومدن السويداء للإمعان بإخافة الأهالي وتحفيزهم على إبداء ردّات فعل خرقاء؛ حيث أقدم العديد من أبناء محافظة السويداء على ردّات فعل، مردّها حالة الخوف والذعر التي أطلق عنانها النظام، وكان ينحو لاستثمارها في الزجّ بالشباب المندفع باتجاه معركة يكونون وقوداً لها لولا تدخل بعض الفعاليات المدنية والمتقنين في المحافظة، وامتصاص غضب الشباب وردهم عن فعلهم أو بالأحرى عن ردة فعلهم.

ب- بعد أن وضعت المعركة أوزارها: تبين لأهالي السويداء، وبمن فيهم قطاع من عناصر الميليشيات الموالية والمتطوعين لدى النظام، أن هذه المعركة لا تستهدف أمنهم، وليس هدف الثوار الدخول إلى السويداء، بل على العكس، كان الرأي العام في المحافظة يتجه إلى أن مسلحي جيش الدفاع الوطني وميليشيا الحزب القومي السوري هم من بادروا بالاعتداء، وهم من

يحاولون جرّ السويداء إلى الفتنة والحرب. يقول "أبو سعيد" وهو رجلٌ من أهالي "بكا" تجاوز الستين من عمره: (أهل درعا جيراننا ولهم علينا حقُّ الجار، والشباب الذين كانوا على الحواجز هم من اعتدوا وسيجرون السويداء إلى الفتنة والحرب، يجب علينا ردعهم، وعلى عقّال المحافظة أن يأخذوا دورهم في هذا الصدد.) ومن خلال استمزازنا للآراء في هذه القرى كانت النتائج كلّها تصبُّ في صالح التهدئة مع درعا والحفاظ على حقوق الجار ووأد الفتنة، وكان الإجماع على أن الخطر الحقيقي ليس من سنّة درعا بل من الفتنة معهم.

ويعود هذا الانزياح في موقف أهالي الجبل إلى عدة أسباب:

1- لأول مرة يحدث حدثٌ قريبٌ منهم يستطيعون معاينته عن كثب من دون وسيط؛ فهم رأوا أن من يدافع ويهجم في حوران هم أهل البلد وليس الغرباء كما كان يشيع النظام بأن المقاتلين في درعا هم من جنسياتٍ غير سورية، وكلهم تكفيريون وإرهابيون ينتمون إلى القاعدة وداعش، يقول أحد المتطوعين في الحزب القومي السوري، وهو من أبناء السويداء وممن شاركوا في المعركة، عند سؤالي له: هل وجدتم غرباء أثناء نزولكم إلى بصرى؟ قال: (لا، لم يكن بينهم غرباء، فقد اشتبكنا مع أبناء المنطقة ونحن نعرف جيداً لهجتهم وأشكالهم.) ثم أضاف: (نحن من كان بيننا الغرباء، وليس هذا وحسب، بل كان يوكل إليهم مهمة قيادتنا، ومعظمهم من الإيرانيين واللبنانيين).

2- تراجع قوات النظام وتهربها من التواجد على خط الاشتباك في القرى التابعة للسويداء والمحاذية لبصرى الشام، رغم طلب أوساط الموالاة في تلك القرى بشكل مباشر حمايتهم، بل أكثر من ذلك زجّ شباب تلك القرى في مواجهةٍ عبثية مع الجيش الحر. يقول أحد شباب قرية "بكا": (لقد طلبنا العون من الجيش أكثر من مرة ولكنه خذلنا، وعندما أتى قائد الفرقة 15 والتقى معنا قال: لا نستطيع أن نقدم لكم سوى ثلاثة عناصر ودوشكا نضعهم على الحاجز، ولا يتحركون أو يطلقون النار إلا بأمر منا).

3- حكمة الجيش الحر في التعاطي مع مجريات الحدث، ولولا هذه الحكمة الهادفة لوأد الفتنة، لكان هناك مئات القتلى في محافظة السويداء، وأهالي السويداء أدركو ذلك لاحقاً وباركوا هذا الموقف. قال أحد شباب قرية "ذيبين" وهم ممّن فزعوا باتجاه "بصرى" و"صماد" بعد أن أشاع النظام أن المسلحين يتوافدون من تلك المنطقة لاقتحام قريتي "بكا" و"ذيبين"،

يقول الشاب: (كنا كالمجانين نحمل سلاحنا ولا ندري أين نتجه، متجمعين على بعضنا كالقطيع دون تنظيم أو تكتيك أو قيادة، وفجأة أصبحنا ضمن خطّ المواجهة، ولكن المسلحين لم يطلقوا النار علينا، أطلقوا فقط بعض القذائف التي سقطت أمامنا، وفيما بعد فهمنا أن هذه القذائف كانت تحذيرية؛ لمنع اقترابنا، ولو أراد هؤلاء المسلحون لأبادونا عن بكرة أبينا، عندها عدنا إلى رشدنا وانكفأنا وأدركنا بأن هذا كان فخاً منصوباً لنا من قوات النظام).

4- استفزاز إعلام النظام لأهالي هذه القرى التي وقعت مصادفةً في خط الاشتباك؛ أي لم تكن مستهدفة بحد ذاتها من قبل الجيش الحر. فبينما كانت الاشتباكات دائرة في "بصرى"، والقتلى في الأرض، كانت قنوات النظام الإعلامية، والتي عادة ما يتابعها الغالبية العظمى من أهالي السويداء، تبتُّ برامج تخص الرياضة والطبخ والترفيه وإلى ما هنالك، وكأنهم خارج سوريا، وفي الوقت الذي تحررت فيه بصرى بالكامل كان الشريط الإخباري على قناة سما الناطقة بلسان النظام يقول: إن قوات الجيش الباسل تمشط وتطهر بصرى الشام من فلول العصابات الإرهابية المسلحة. هنا شعر أهالي قرى السويداء التي في قلب الحدث بالاستفزاز، ومدى الكذب والنفاق والانفصال عن الواقع لدى إعلام النظام. يقول أحد الموالين للنظام في قرية "بكا"، وهو من أعضاء حزب البعث الاشتراكي ومسؤول تنظيمي فيه، وهذا الكلام نقلاً عن أحد المقرئين له: (لقد اضطررنا إلى مشاهدة الأخبار على قناة أورينت لنعرف حقيقة ما يجري عندنا، لقد قصر إعلامنا وهو إعلامٌ كاذبٌ وفسادٌ).

عيّنات رأي

وكنا قد قمنا في صيف 2014 بمحاولة متواضعة لاستمزاز آراء أبناء المحافظة حول علاقتهم بالنظام، عن طريق استهداف عيّنة عشوائية وأخرى منتظمة من أبناء محافظة السويداء لرصد التحولات التي تطرأ على المواقف والأمزجة، وحددنا العدد بعشرين شخصاً لكلا العيّنتين؛ وذلك لصعوبة العمل والتنقل ضمن الأجواء الأمنية الخائفة في المحافظة.

فكانت النتيجة كالتالي:

العينة العشوائية:

مزاج موالي للنظام	النأي بالنفس	مزاج معارض للنظام
-------------------	--------------	-------------------

20 من 4	20 من 9	20 من 7
---------	---------	---------

العينة المنتظمة: واستهدفنا فيها الموالين للنظام فقط، من الشرائح العمرية والاجتماعية والثقافية كافة، أي 20 من 20 شخصاً مزاجهم موالٍ للنظام.

ثم كررنا المحاولة، بعد معركة "قادسية بصرى" تحديداً في بداية شهر نيسان من العام الحالي، فكانت النتيجة:

العينة العشوائية:

مزاج موالٍ للنظام	النأي بالنفس	مزاج معارض للنظام
3 من 20	11 من 20	6 من 20

العينة المنتظمة:

مزاج موالٍ للنظام	النأي بالنفس	مزاج معارض للنظام
6 من 20	12 من 20	2 من 20

وعلى الرغم من صغر العينات إلا أن بقية وسائل الاستقصاء لدينا التي أشرنا إليها بداية، والتي بنينا عليها استنتاجاتنا، تؤشر على مدى الانزياح والتغير في الأمزجة والمواقف.

مؤشرات رأي عملية:

كما جرت أيضاً مجموعة من الأحداث المتتالية قد تدلّ على صحة زعمنا بانحراف المزاج العام في المحافظة ومن أبرز هذه الأحداث:

1- فشل فعالية الملعب البلدي، عندما قام النظام بدعوة أبناء الجبل للتسليح، واختار مكاناً وهو الملعب البلدي في السويداء، فتقاطرت الشباب إلى هناك، وعندما لمسوا أن هذا التسليح ليس لحماية الجبل بل للمهمات التي يريدتها النظام، ولاسيما الحشد للهجوم على درعا واستعادة بصرى، انفضّ الشباب وفشلت هذه الفعالية.

2- رفض أهالي بلدة القرية للقرار الذي اتخذه النظام بوضع ثلاثة حواجز غرب البلدة، ومنعهم إياه من وضع هذه الحواجز، واعتبارها تجلب البلاء للبلدة ولا تدافع عنها.

3- دعوة النظام عن طريق عملائه من المشايخ والحزبيين لتشكيل جيش حشدٍ شعبيّ بقيادة الضابط المتقاعد "نايف العاقل"، الذي يحظى بمكانةٍ عاليةٍ عند بعض أبناء السويداء لما روي عنه من بطولات في حرب تشرين، وإن اختيار شخصيةٍ مثل "نايف العاقل" من قبل النظام تدلّ على عجز الأخير في استقطاب الشباب، فأراد أن يستثمر في مكانة "نايف العاقل" وجعله واجهَةً يمرّر من خلالها مخططاته. وقد نفى "نايف العاقل" مؤخراً صحة هذا الخبر، لكن هذا النفي جاء بعد علم النظام استحالة تشكّل هذا الجيش.

4- هجوم مجموعة من شباب "صلخد" على الأمن الجنائي في السويداء في تاريخ 2015/4/11، وقد قاموا بتطويقه وحرقت ثلاث سيارات تابعة للأمن الجنائي، إثر اعتقال أحد الأشخاص المطلوبين للخدمة الإلزامية، وقاموا باسترجاعه عنوةً.

نتائج معركة قادسية بصرى" في محافظة السويداء

- 1- تنامي الشعور بضعف النظام، وأنه غير قادرٍ على حماية الأقليات التي لطالما كانت رسالة النظام خارجياً وداخلياً.
- 2- زيادة منسوب التشكيك بإعلام النظام، ولاسيما بعد أن لمس الأهالي كذبه ولامبالاته وانفصاله عن الواقع بعد أن شاهدوا مجريات الأمور على أرض الواقع، تحديداً أنه نقل صورةً لا تطابق واقعاً يشاهدونه عن هذا القرب لأول مرة.
- 3- انكفاء الميليشيات الموالية، بسبب: تلقيهم هزيمةً نكراء؛ وشعورهم بالتوريط من قبل أجهزة النظام، التي رجّت بهم في المعركة كوقود لها، وانسحبت من "بصرى" مع الميليشيات الشيعية والإيرانية دون أن تنسق معهم، فبقوا محاصرين في القلعة إلى أن أطلق سراحهم الجيش الحر.
- 4- ميلٌ متصاعد نحو النفور من شيوخ السلطة الزميين والدينيين، بعدما كشف عددٌ كبير من أبناء الجبل تواطؤهم مع السلطة على حسابهم، وهو ما يهدد بسقوط شرعيتهم الاجتماعية والدينية، إن استمر هذا الميل بالتصاعد.
- 5- ظهور شخصياتٍ وطنيةٍ واجتماعيةٍ ودينيةٍ جديدة تتبوأ سدة الرأي في المحافظة بعد انكشاف الزعامات الدينية السابقة على حقيقتها، وهذا ما يعتبره معارضون مؤشراً على إمكانية تغيير

- المرجعية الدينية والاجتماعية لأبناء المحافظة مستقبلاً. وهو ما يأخذ مصداقيةً مع زيادة تصدُر من باتوا يُعرفون بـ"مشايخ الكرامة" للمشهد في السويداء.
- 6- تنبُّه قطاع متزايد من الموالين للنظام في محافظة السويداء إلى أن المعركة ليست وطنيةً كما كانوا يظنون وليست حرباً على الإرهاب، بل هي احتلالٌ إيرانيٌّ للشعب السوري.
- 7- الخلافات التي حصلت ما بين الدفاع الوطني من جهةٍ والجيش والأجهزة الأمنية من جهةٍ أخرى.
- 8- تحميل الأهالي لشخصياتٍ أمنيةٍ في المحافظة المسؤولية عن بثِّ الفتنة بين المحافظتين، معتبرين أنها الخطر المحدق.
- 9- تزايد النفور من النظام الحاكم نتيجة الاتهامات التي تداولها موالوه في المحافظات الأخرى، وصرح عنها رئيس فرع الأمن العسكري في المحافظة، التي عللت سقوط بصرى بعدم تعاون أهالي السويداء مع الجيش.
- 10- إن سيطرة الجيش الحر على "بصرى" والمناطق المحاذية لقرى السويداء الواقعة في الجنوب الغربي، منع النظام من المتاجرة بدم شباب السويداء، وقطع الطريق عليه باستخدامهم كراس حرية في معاركه المقبلة في درعا.
- 11- نفور الأهالي من ميليشيا النظام، واعتبارهم أصل البلاء والمشكلات في المحافظة.

الخاتمة

من المبكر الحسم في سبل تطوّر الرأي، والقول الفصل بقدرة المحافظتين الجارتين على مواجهة الفتنة حتى النهاية؛ فالأمر مرتبطٌ بمدى تنامي العوامل التي أشرنا إليها وركزنا على دورها المحوريّ في انزياح الرأي في محافظة السويداء باتجاه الثورة. وإن كانت معركة "قادسية بصرى" مفصلاً مهماً في علاقة السويداء بدرعا، ولها أثرٌ كبيرٌ في تغيير المزاج السياسي وإسقاط هيبة النظام في المحافظة، إلا أنها مازالت معركةً من معاركٍ طويلةٍ متوقعة. وإذا كانت السلوكيات الإيجابية للمعارضة المسلحة قد وجهت صفعاً قوياً للفتنة المفتعلة من قبل النظام الحاكم الساعي، بإستراتيجيته إلى نقل الثورة من دائرة الثورة الشعبية إلى دائرة حرب الجميع على الجميع، وتذير الشعب السوري مناطقياً وطائفياً وحتى عشائرياً، فإنها تحتاج للاكتمال لتصبح إستراتيجية لمؤسسةٍ وطنيةٍ جامعةٍ حتى تعمّ الطمأنينة قلوب السوريين.

توصيات ومقترحات

- 1- التركيز على سلوكيات الجيش الحر في معركة "قادسية بصرى" باتجاه وأد الفتنة، والعمل على تطويرها لتصير إستراتيجية وطنية وتعميمها على كامل التراب السوري.
 - 2- الانتباه من ردّات فعل النظام بعد فشله في إقحام السويداء في مواجهة أهالي درعا.
 - 3- الانتباه لما يخطط له النظام، ولاسيما بعد إعلانه عن نيته في تشكيل "جيش الحشد الشعبي" بقيادة الضابط المتقاعد "نايف العاقل"؛ وما لهذه التسمية من دلالاتٍ طائفية مأخوذة من الفرز الطائفي الذي ترعاه إيران في العراق. (مع العلم أن نايف العاقل نفى هذا الخبر)
 - 4- العمل على تحقيق تواصلٍ وتنسيقٍ وتشكيل لجنة مشتركة بين ثوار السويداء ودرعا، تفصح ما يقوم به النظام من أحداثٍ خطفٍ وقتلٍ بمساعدة العملاء والمتطرفين والفاستين في الجيش الحر والعمل على قطع دابر الفتنة.
- فتمنع حوادث كتلك التي حصلت في تاريخ 2015/4/12، حين تمت عملية خطف تختلف في السياق العام عن سلوك القوى المدنيّة والعسكريّة الرئيسيّة في محافظة درعا، كما دللنا بالوقائع؛ فقد أقدمت مجموعةٌ من درعا على اختطاف شابين وفتاة من آل "أبو لطيف" من أهالي السويداء. وهم "مرهف ومجيد وبراءة أبو لطيف"، وأعلنت أنها ستطلق سراحهم مقابل إطلاق سراح بعض المعتقلين من قبل قوات النظام، وهم "سحر البراغثة" و"سميرة العلي" و"أسامة البراغثة". وهو ما من شأنه إن تكرر أن يعيد مركزية الحساسيات بين المحافظتين، ويصبّ في صالح الفتنة. ورغم ذلك قام "مشايخ الكرامة" بإجبار الأجهزة الأمنيّة على إطلاق سراح المعتقلين من أبناء درعا، وتمت مبادلتهم مع المختطفين من محافظة السويداء في تاريخ 2015/4/16.
- 5- التركيز بشكلٍ ممنهجٍ على المشاركة الشعبية، وتمكين المجتمع في محافظة السويداء من المشاركة السياسية مع مراعاة الطرف الراهن.